

الباب الرابع

[التحليل والمقارنة]

٤,١ المقدمة

لقد وجدنا لهذين القضيتين (قضية اللفظ والمعنى) عند العرب وهي قضية مدروسة في علم البلاغة و(قضية المعنى والمغزى) عند الغرب وهي قضية متعلقة بعلم الدلالة علاقات مرتبطة من حيث وجود وجوه الاتفاقى مع بعض وجوه الاختلاف بينهما . ونبحث العلاقة وحدودها بآراء القدماء من العرب والغربيين عنها.

ومما تقدم من بحثي عن البلاغيين العربيين واللغويين الأروبيين، ونجد نتيجة تملبها المقارنة بين النصوص هي أن البلاغيين في معركتهم البلاغية لم يفرغوا من التوفيق أو التفريق بين اللفظ والمعنى ، أو الصورة والمادة ، أو الشكل والمضمون ، ليواصلوا إلى معايير فنية وهو يعتمد عليه في تفريق وتبيين بين أساليب الكلام الجمالية. وفي العودة بتلك المعايير إلى الصيغ والتراكيب ، أو إلى المواد والمضامين ، أو لهما معاً ، مما جعل عبد القاهر يرد على التطرف في الرأيين وينفرد بإدراك العلاقة الموجودة بين الشكل والمحتوى ، فيعود بذلك إلى ما أسماه بالتأليف والنظم . وهو لا يريد بذلك إلا الصورة الفنية في كثير من حدود صيغتها الاصطلاحية والاستدلال على أن الصورة غير منفردة دون فن ، وإنما تشمل فنون القول بعامه ، أي إنها لا تنطبق على الشعر فقط، وإنما تعداه إلى العمل الأدبي بشقيه ، إذا توافقت أصوله ، وحسن تأليفه وتناسب نظمه ، وبذلك تستوعب الصورة صنف البيان ، بدليل إخضاع مقصودها عنده لآيات القرآنية، وإثبات إعجازه ، كما هو واضح لمن

استقرأ دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة. فعبد القاهر الجرجاني أول من قدّم لمصطلح الصورة ، وأول قائل بها.

وإن مصطلح الصورة عند النقاد الأوروبيين ممن عرضنا لآرائهم وتعريفهم قد بدأ تأرجحاً بين مدلول لا جمع بين أكثرها وقد يتخلل تعبيرها الغموض وعدم التحديد ، وألفاظها وإن كانت لا تخلو من طرافة ونعومة إلا أنها عاجزة عن تحديد المصطلح تحديداً علمياً ، فالضلال ، والألوان ، والحركة ، والحس ، والرسم ، والمشهد، والعشوى ، الكائن ، والحى ، والإيجاء ، والشحن ، والعاطفة ، والفكرة ، وفوق المنطق. وجميع الكلمات التي حشرت لتفسير معنى الصورة ، ولا يتم معها الضبط العلمي ، ولا يعلم المراد منها على وجه التحقيق ، إلا إنها تحوم حول المصطلح ولا تفصح عنه. فالصورة — كما وجدنا من خلال المقارنة — عبارة عن العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى في نص أدبي ، ومعنى عن اقتراحهما ، هو أنه ليست لأي واحد منهما استقلالية ، وإنما كلاهما متلازمان ومترابطان. فليست هي اللفظ بمفرده شكلاً فارغاً رناناً ، ولا المعنى بذاته مضموناً ذهنياً مجرداً ، ولكنها الخصائص المشتركة بين اللفظ والمعنى ، والتي تقوم بها شخصية النص ، وتميز عن غيرها من النصوص بما تحمله من أحاسيس وانفعالات قد لا يوحي ظاهر اللفظ ، ولا يحققها مجرد المعنى ، ولكنها مزيج بين دلائل اللفظ ، ومعزى المعنى في تحقيق نموذج أدبي ، أو تمييز نص عن نص ، بما تضيفه صياغة الشكل في علاقاته الاستعارية ، وما تمليه خصائص المعنى في تأثيره وأحاسيسه.

أو هي — بإيجاز — مجموعة العلاقات اللغوية والبيانية والإيحائية القائمة بين اللفظ والمعنى . وعلى هذا، فالصورة أداة فنية لاستيعاب أبعاد الشكل والمضمون بما لهما من مميزات. وما بينهما من وشائج تجعل الفصل بينهما مستحيلاً.